

# عبد الكريم سروش ومعاله مشروع نظرية تعددية في الإسلام: نقد المعرفة الدينية مدخلاً للتأسيس

محمد طيفوري  
باحث عراقي



قسم الدراسات الدينية

## الملخص:

تعدّ نظرية التعددية الدينية أفضل السبل للخروج من دوامة الأسئلة الشائكة التي تواجه الإنسان المعاصر، وتسهم في فتح أفق أكبر للتعدد والتنوع وقبول الآخر المخالف، وتحدد بالموازاة مع خطاب الاصطفائية والفرقة الناجية، ودعوى التفضيل التي أسيء فهمها، وتسعى في المقابل إلى تجاوز خرافة حوار الأديان وإلغاء الانحصارية وتكريس التعددية.

هذه الدراسة مقدّمة لقراءة في أعمال المفكر الإيراني عبد الكريم سروش بوصفه أحد الأسماء المؤسسة لهذه النظرية على الساحة الإسلامية.

## تقديم: في أسباب النزول

لم تكن إثارة موضوع التعددية الدينية من باب الترف الفكري والسجال النخبوي، بقدر ما هو تنبيه عن التغافل عن الوجه الآخر لموضوع فرض نفسه على ساحة الفكر والنقاش في الفترة الأخيرة، وسطرت حوله مؤلفات وأعمال تعد بالعشرات؛ إنه موضوع الدين والتدين<sup>1</sup>. ففهم مبحث الدين والتدين يفضي بصاحبه إلى تبني نظرية التعددية الدينية، ولأخذ موقف من هذه النظرية لا بد من استيعاب أطروحة الدين والتدين بتشكلاتها المختلفة؛ فالبت في جوهر الدين وعرضه، أو القلب والحاشية هو تعيين الشيء الذي يعد ذاتياً للدين؛ أي علام تقوم حقيقة الدين والتدين؟ وما هي الأشياء الأخرى التي تمثل بالنسبة للدين أموراً عرضية وربما اتفاقية، لتكون بالتالي خارجة عن حقيقته، حيث يواصل الدين مساره ويبقى حتى لو افتقدتها؟

مفصلة إشكالية الدين والتدين تجعل نظرية التعددية الدينية أوفق السبل للخروج من دوامة الأسئلة التي تصاحب هذه الإشكالية، وتسهم كذلك في فتح أفق أكبر للتعدد والتنوع والتعايش وقبول الآخر المخالف، وتحد في المقابل من خطاب الاصطفائية والفرقة الناجية ودعوى التفضيل<sup>2</sup> التي أسيء فهمها.

بناءً على ذلك، نتساءل في البدء عن ماهية هذه النظرية، ومن ثم بحث أصولها وتتبع جينالوجيا فكرة التعددية في الأديان، فهل تقتصر على أديان بعينها أم أنها جاءت لمطلق الأديان؟ وما علاقة هذه النظرية بفكرة الحوار بين الأديان؟ ونبحث في الشق الثاني من هذه الدراسة مبحث التعددية الدينية في الإسلام بالتساؤل عن أسس ومرتكزات هذه النظرية من داخل الدائرة الإسلامية، وذلك من خلال قراءة في أعمال أحد أبرز المفكرين الإسلاميين المشتغلين عليها.

## أولاً: في أصول فكرة التعددية الدينية

تعد ظاهرة التنوع الديني أو تعددية الأديان حقيقة اجتماعية وواقعة وجودياً يفرض على المجتمعات الإنسانية المعاصرة مواجهته؛ فالتاريخ البشري في مساره التطوري يعرف ولأول مرة تعايشاً لأفراد بمعتقدات وأديان مختلفة في البلد الواحد، وربما في قرية واحدة، بل في الحي الواحد.

<sup>1</sup> - صدرت العشرات من المؤلفات في السنوات الأخيرة التي بحثت في هذا الموضوع، نذكر منها: "الدين والتدين؛ التشريع والنص والاجتماع" عبد الجواد ياسين 2012، و"الدين والعلمانية في سياق تاريخي" عزمي بشارة 2013، و"دوامات التدين" يوسف زيدان 2013، و"ديانة الضمير الفردي؛ ومصير الإسلام في العصر الحديث" محمد الحداد 2007،... وغيرها من المؤلفات.

<sup>2</sup> - عن خطاب التفضيل هذا، نجد في القرآن "كنتم خير أمة أخرجت للناس"، وفي إنجيل يوحنا "وأما كل الدين قبلوه، فأعطاهم سلطاناً، أن يصيروا أولاد الله... والكلمة صارت جسداً"، وفي سفر التلاوين التوراة "قد ميزتكم من الشعوب، لتكونوا لي".

هذا المتغير الاجتماعي، انطرح بقوة مع تجذر أسس بناء الدولة الحديثة، وانقلاب معايير الانتماء، كـ العرق، واللسان، والاعتقاد... إلخ إلى الانتماء القائم على أساس المواطنة. وازدادت حدته مع ارتفاع معدلات الهجرة السكانية فيما بين الدول، وما يفرضه ذلك من قبول المهاجرين بثقافة ودين وقيم غير تلك السائدة في الدولة المستقبلية لهم.

كل هذا أوجب بحث هذه الظاهرة التي أظهرت مشكلة حقيقية، بالنسبة للمجتمعات التي لم تكن لديها خبرة أو تجربة في التعايش الديني السلمي على وجه الخصوص، لتفتح بذلك مجالات واسعة لبحث ظاهرة التعددية الدينية سعياً لفهم أمثل لها، قصد تقديم مقاربات أفضل لهذه الظاهرة المركبة. فما هو أصل هذه الظاهرة؟ وهل من جينالوجيا لها؟

### 1- في ماهية التعددية الدينية:

التعددية الدينية هي الاعتراف بحقانية الفرق والأديان الأخرى والابتعاد عن القطعية والانحصارية داخل دائرة الدين الواحد، والتمحور حول الذات والحقيقة الواحدة. فتطور المعرفة البشرية يؤدي إلى تعدد الفهم للنصوص الدينية، لأن العقل هو من يستنتق النصوص الدينية، وكذلك يقوم بتأويل المتون الدينية بما يتناسب مع الزمان والمكان.

ويعرفها التعددي الألماني جون هيك، وهو ذات التعريف الذي يعتمد عليه الباحث أنيس طه، بأنها وجهة النظر القائلة: "إن الأديان العالمية الكبرى، إنما هي تصورات ومفاهيم متنوعة، واستجابات مختلفة للحقيقة النهائية المطلقة، أو الذات العليا من خلال ثقافات الناس المختلفة، وأن تحول الوجود الإنساني من محورية الذات إلى محورية الحقيقة يحدث في كل الأديان بنسبة متساوية".<sup>3</sup>

وبالرغم من أن فكرة التعددية تعد فكرة حديثة النشأة من الناحية اللفظية، بيد أنها ضاربة في جذور التاريخ الفكري للبشر كحقيقة واقعية، ومن أقوى الأسباب التي أوجدت التعددية الدينية، وعززتها في العصر الحديث قصور المعرفة الإنسانية وتدرجها، وعجزها عن الإحاطة بالواقع الواسع والمعقد من كافة جوانبه.

ويذهب أحد الباحثين في هذا الصدد إلى أن مفهوم التعددية (البلورية الدينية) من المفاهيم التي ظهرت حديثاً، وذلك نتيجة لتعدد الثقافات واللغات والانفتاح على الآخر، مما وفر مناخاً للتلاقح والخروج من المفهوم

<sup>3</sup> - أنيس مالك طه: "التعددية الدينية: رؤية إسلامية"، كوالامبور: مركز البحوث الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، الطبعة الأولى 2005، ص 73 وما بعدها.

الحصري. ويضيف أنه، أي المفهوم، وليد حركات نقدية عقلية أنتجتها المتغيرات الثقافية والاجتماعية والعلمية، وهي حركات تؤمن بالتعددية الدينية في تجاوز كلي للتفسير الديني التقليدي، لقيامه على أساس الولادة والبيئة الاجتماعية، وانتفاء الإرادة الحرة والاختيار العقلي فيه.<sup>4</sup>

تقوم فكرة التعددية الدينية اليوم بشكل أساسي على عنصرين أساسيين؛ أحدهما تنوع الاستنتاجات من النصوص الدينية، وثانيهما تنوع التفسيرات للتجارب الدينية؛ فالمعرفة كما يقول القديس توما الأكويني هي بحسب نمط العارف، وبصيغة كانطية، نسبة إلى إيمانويل كانط، بسيطة لا يمكن تفسير التجربة إلا حين تتموضع داخل بنية ذهنية مسبقة، وتندرج تحت تصنيف منطقي أو قولي يعتمد على التجربة؛ فالذات المفكرة سابقة على المعطيات التجريبية.

وصلت فكرة التعددية الدينية إلى هذه الماهية بعد أن انطلقت من إقرار بوجود التسامح بين الأديان مبدأً، مما يفيد حرية الإنسان في اختيار معتقده، وعدم فرض أي دين عليه، واتباع منهج التسامح والتساهل مع الآخر في السلوك والتعايش، رغم اعتقاد هذه المجموعة أنّ من ليس على عقيدتها لا يذوق من النجاح شيئاً في الحياة الآخرة.

ثم تطورت هذه النظرية لتصل إلى مرحلة أكثر رقيًا وتقدمًا، باعترافها بامتلاك الديانات الأخرى شيئاً من الحقيقة، بل هي شريكة في امتلاك الحقيقة. وتفرض هذه الرؤيا إبطال امتلاك دين معين الحقيقة كلها وحده. وبذلك اكتملت الحلقات الثلاثة من التعددية<sup>5</sup>:

- التعددية الأخلاقية: التي تفرض على أتباع دين أن يتسامحوا ويلينوا في سلوكياتهم وتعاملاتهم مع أصحاب الدين الآخر، دون أن يعني ذلك الاعتراف بوجود حصة من الحقيقة والنجاة لهم.

- التعددية الخلاصية: القاضية بأن غير المؤمنين يمتلكون فرص الفوز بالجنة أو بالخلاص، وهذا البعد من التعددية هو الذي يمكن المؤمن من الالتزام بالتعددية الأخلاقية، لأن وجود اعتقاد بإمكان وجود هذه الفرص يفسح المجال للتسامح السلوكي، والتصرف البعيد عن العنف مع أتباع الديانات أخرى.

- التعددية الدينية: وهي أخطر هذه المراحل وأكثر المستويات حساسية في نظرية التعددية، لأنها تمكن من كسر جمود كبير، وتفسح المجال أمام التعايش السلمي بين الديانات المختلفة، مع قدر أقل من الاحتكاك.

<sup>4</sup> - عادل الخزل: "التعددية الدينية" يومية الصباح الجديد، ع 2647 بتاريخ 21 غشت/أب 2013، ص 17

<sup>5</sup> - نجف علي ميرزائي: لا دين يحتكر الحقيقة؛ موقف إسلامي من التعددية، يومية النهار اللبنانية، بتاريخ 17 مارس/ آذار 2002، ص 16

لتكون المحصلة قيام نظرية استطاعت تحويل الأديان المتصادمة إلى أديان متسالمة، تلتقي على حقيقة واحدة، وتتشرك في إمكان توفير فرصة الخلاص لأتباعها.

## 2- التعددية الدينية: تاريخ الفكرة

نشأت حركة أخلاقية وفلسفية معرفية في أوروبا، دعت إلى ضرورة التوقف عن الرؤية الحصرية والاحتكارية للحقيقة، وإلى لزوم الاعتراف بالآخر المختلف دينياً، وذلك بعد أن وضع الصراع الديني والمذهبي والعرقى أوزاره في أوروبا التي اكتوت بناه لقرون من الزمن. فظهرت التعددية الدينية في عصر الإصلاح الديني، وكانت محاولة لوضع أساس نظري في العقيدة المسيحية للتسامح تجاه الأديان غير المسيحية، مثلت عنصراً من عناصر حركة التجديد الديني أو الحرية الدينية التي حدثت في المسيحية البروتستانتية في القرن التاسع عشر الميلادي بقيادة الفيلسوف الألماني فريدريش شلايرماخر، والتي اشتهرت بالدفاع عن الدين والتجربة الدينية.<sup>6</sup>

انقسمت أطروحة التعددية الدينية على نفسها إلى اتجاهات مختلفة أفرزت مقاربات متباينة لفكرة التعددية الدينية؛ فالأصل في انبثاق مفهوم التعددية الدينية يعود إلى التعارض القائم بين الأديان العقديّة، وإذا كان أصحاب الديانات غالباً ما يركزون على التعارض العقدي لشدة وضوحه، فإنهم في المقابل يهملون بدرجة أو بأخرى التعارضات التاريخية، على الرغم من أن هذا النوع من التعارضات له الدور الأبرز في عدم التسامح.<sup>7</sup> وهذه الاتجاهات هي:

- اتجاه اللاهوت العولمي (Global theology): يرمي هذا الاتجاه إلى إعادة النظر في مصطلح الدين، وتغيير الرؤية من مركزية الدين إلى محورية الإله. ويظهر هذا الاتجاه في أطروحة ولفريد ك. سميث، وعند جون هيك.

- اتجاه الإنسانية العلمانية (Secular humanism): والتي يمثل رؤيتها كثير من الزعماء السياسيين، أمثال بنيامين فرانكلين، والعلماء اللاهوتيين أمثال هارفي كوكس.

<sup>6</sup>- فريدريش شلايرماخر صاحب كتاب "عن الدين: حوارات مع محتفريه من المثقفين" ترجمة أسامة الشحماني، انظر شلايرماخر: "دفاعاً عن التجربة الدينية" مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد 53-54 السنة السابعة عشرة، شتاء وربيع 2013، ص 221 وما بعدها.

<sup>7</sup>- ومن الأمثلة على ذلك فكرة الاختيار الإلهي الموجودة في كل الأديان (في اليهودية، مثلاً، أن اليهود شعب الله المختار، وفي المسيحية أن الله قد تجسد في ابنه الوحيد لإنقاذ البشرية. وفي الإسلام أن المسلمين خير أمة أخرجت للناس) التي عادة ما تستثمر للاحتراب في الصراع السياسي والاجتماعي.

- اتجاه التوفيقية أو الانتقائية (Syncretism or Eclecticism): ويمثل تصوره المجتمع الإلهي والمجتمع النيوصوفي الذي أسس سنة 1875 بنيويورك، وراماكرشنا، وسوامي ويويكانندا، والماهاتما غاندي.

- اتجاه الحكمة الخالدة (perennial wisdom): التي تؤمن بطبيعة الحقيقة الروحية الباطنة الأزلية التي هي أساس كل الوجود وجوهره، وتتمظهر في الحقائق الظاهرة بلغات مختلفة. ومن أبرز رواده رينيه جينون وأنندا كومار سوامي والسيد حسين نصر.

إذا كانت فكرة التعددية الدينية أوروبية النشأة، فإن انتشارها وإشاعتها لم يبقَ حكراً على باحثين وعلماء أوروبيين، بل كان للحكماء ورجال الدين الآسيويين دور مهم في ذلك، ونذكر من الأعلام الذين كرسوا حياتهم لترويج هذه الفكرة رام موهن راي (1772-1833) الهندوسي المعتقد، ومؤسس حركة براهما ساماج؛ أي المجتمع الإلهي، التي تؤمن بوحدانية الإله وبتساوي الأديان كلها.

ونذكر كذلك الصوفي البنغالي سري راماكريشنا (1834 - 1886) الذي قام برحلة روحية بين الأديان، بدءاً بالهندوسية مروراً بالإسلام والمسيحية ثم عودة إلى الهندوسية بعد ترسيخ اعتقاده بأن الاختلافات المتعارضة الموجودة بين الأديان والطرائق الروحية لا معنى لها.

كما كانت مساهمة بعض المتصوفة الغربيين الذين أعلنوا إسلامهم، أمثال رينيه جينون (عبد الواحد يحيى)، وف. شون (عيسى نور الدين أحمد) بارزة، فكانت أفكارهم نابعة من فكرة التعددية الدينية، ولعل من أبرز المسلمين الذين اشتغلوا تحت مظلة التعددية الدينية نجد كلاً من الإيرانيين: سيد حسين نصر وعبد الكريم سروروش.

لم تبقَ فكرة التعددية الدينية حكراً على الأديان<sup>8</sup> فيما بينها، فهذه الحقيقة الواقعية القائمة الذات، والتي يستحيل أن تكون قابلة للاختزال إلى فهم واحد، فرضت نفسها داخل الدين الواحد. وفي هذا الصدد، يقول جون هيك: "إذا كان هناك تاريخ خلاص للمسيحية فهناك أيضاً تواريخ خلاص في أمكنة أخرى، تجعل الله أسماء متعددة وهويات مختلفة وتجعله يعمل بكل ثقافة بطريقة مختلفة، وهذا يعني ضرورة الاعتراف بالتعددية داخل الدين الواحد أيضاً"<sup>9</sup>.

<sup>8</sup> - نستعمل كلمة الأديان مجردة من أي وصف، لأن الحديث يشمل اعتقاد الفرد مهما كان، في هذا السياق، يقول يوسف زيدان: "جرت عادة الناس في بلادنا، في أيامنا الحالية، أن يصفوا اليهودية والمسيحية، والإسلام، تحديداً، بأنها ديانات سماوية، ولم يكن غالبية الأوائل ولا الأواخر من العلماء، يستعملون تلك التسمية أو هذا الوصف للديانات الثلاث. إذ إن أي دين، أيًا كان، هو بالضرورة سماوي لغة واصطلاحاً". انظر يوسف زيدان: أصول العنف في اللاهوت العربي، دار الشروق القاهرة، الطبعة السابعة 2013

<sup>9</sup> - جون هيك: "الأديان المختلفة وتعارضات الحقيقة"، مجلة التقاهم، العدد 31، السنة التاسعة شتاء 2011، ص 390

ليس ثمة دينٌ لم يشهد هذه الكثرة أو لم يعيشها تاريخياً، والتاريخ الكلامي للأديان والمذاهب يعد شهادة واضحة على هذا الأمر، لكن أحدًا لم ينبزٍ للتنظير لهذه الكثرة، والسعي لبلورة رؤية نظرية معرفية عنها، وذلك لأن أحدًا لم يأخذ هذا الأمر مأخذ الجد إلا نادرًا.

## ثانيًا: عبد الكريم سروش بعيدًا عن الانحصارية قريبًا من التعددية

يشغل عبد الكريم سروش في طرحه المؤسس للتفكير الحر على التعاطي مع المعرفة الدينية، بشكل يعلن القطيعة مع تراكم دام قرونًا من الزمن، سمح للمؤسسة الدينية ورجالها بادعاء امتلاك الحقيقة والحديث باسم الدين. ويمتاز جهد سروش بشيء من الخصوصية يتجلى في تحرره من القيود المذهبية، المذهب الشيعي الذي ينتمي إليه تحديدًا، لينفتح على فضاء التجربة الإنسانية بتنوعها، علاوة على تعاطيه مع القضايا الدينية لا بوصفه رجل دين متخصص، بل بوصفه متدينًا من خارج المؤسسة الدينية يرفض احتكار السلطة الدينية أو حصرها في طبقة أو فئة بعينها.

ويقدم مشروعه الفكري في عنوان عريض يعرف باسم "نظرية القبض والبسط في الشريعة الإسلامية"، وتحت هذا العنوان تصطف محاور تفصيلية تتداخل لتكمل معالم هذه النظرية، والتي لا تعدو أن تتطور مع تعميق البحث فيها على ضوء تعاطيه مع المعارف الدينية إلى تشكيل نظرية مستقلة. فكيف يتعاطى سروش مع المعرفة الدينية في مشروعه؟ وهل تأتي أطروحته في التعددية الدينية ضمن السياق العالمي لتأسيس الفكرة كما تم بحثه سلفًا أم أنه يقيم معالمها من داخل الدائرة النصية والمجال التاريخي للتجربة الإسلامية؟

### 1- في حوامل المعرفة الدينية: النسبية والتغيير

يتميز عبد الكريم سروش بكونه مفكرًا متعدد الثقافات متعدّد المنهجيات في البحث؛ فهو الكيميائي والصيدلاني المتخصص، والمتتبع لأحدث الدراسات الغربية في علم التاريخ وفلسفة العلوم والإبستمولوجيا، وهو إلى جانب ذلك المتبحر في علم الكلام والتفسير وأصول الفقه، وصاحب ذوق للأدبيات العرفانية الصوفية. على أن هذه العناصر التكوينية لثقافة سروش التي تظهر جلية في كتاباته عبر الاستشهاد والتوثيق والإشارة، لا تصطف اصطفافًا كميًا، بل تتداخل وتتفاعل في نوع من الوحدة المعرفية التي تتحول بفعل تداخلها العميق إلى منهج معرفي متكامل.<sup>10</sup>

<sup>10</sup> - وجيه كوثراني: "قراءة في القبض والبسط لعبد الكريم سروش"، يومية الوسط البحريني، عدد 2141 بتاريخ 17 يوليو/تموز 2008، ص 17



وتتعين أثار هذا المنهج في أفكار ورؤى سروش من خلال رفض كل أشكال التسطيح المسماة "معرفة"<sup>11</sup>، وإخراج المعرفة الدينية من دائرة التقبل المحفوفة بالقدسية إلى دائرة البحث والتمحيص والمساءلة. ومن الأمثلة على هذا ما قاله سروش طي حديثه عن تجديد الفكر الديني لدى المفكر محمد إقبال: "كان إقبال يتكلم عن تجديد الفكر الديني، فماذا كان يقصد؟ ما هو التفكير الديني الذي يحتاج إلى تجديد؟ ونحن الذين نريد التجديد، ماذا نريد أن نفعل؟ فلو كان لمفهوم التجديد والتحديث معنى في الأفكار البشرية كيف يكون في الأفكار الإلهية والمذاهب الدينية؟"<sup>12</sup>

يعمل سروش على تصحيح الانطباع السائد تاريخياً حول قداسة المعرفة الدينية وخلودها للذين تستمدهما دون مبرر منطقي من خلود الشريعة، في تجاهل للتحويلات التي تطالها ومستويات الاختلاف التي تتجلى في تقبلها، ذلك الانطباع الذي نجد تجلياته في تقديس مفاهيم من قبيل النص والإجماع والفتوى... وغيرها.

ويميز سروش عند مقارنته المعرفة الدينية بين الشريعة التي هي باعتماد المؤمنين قدسية كاملة وإلهية المصدر والمنشأ، وبين فهم وتلقي الناس للشريعة الذي لا يتصف بأي من هذه الصفات، والذي لم يكن في أي عصر من العصور كاملاً ولا ثابتاً ولا نقياً ولا بعيداً عن الخطأ والخلل، ولا مستغنياً عن المعارف البشرية أو مستقلاً عنها، ولم يكن منشؤه قدسياً ولا إلهياً أبداً، وهو، أي الفهم، ليس بمنأى عن تحريف المحرفين أو الفهم الخاطئ لذوي العقول القاصرة، وليس خالداً ولا أبدياً.<sup>13</sup>

ولتوضيح طرحه، يعتمد إلى عقد تشبيه للمعرفة الدينية بالمعرفة التاريخية، فيقول: "إن علم التاريخ يتطور وتعاد صياغته دائماً، ليس لأن الاكتشافات التاريخية تزداد كمّاً، ولكن لأن فهم المؤرخ للحوادث يتطور كيفاً، ولأن الاكتشافات العلمية الجديدة تفتح منافذ جديدة للتحقيقات والأبحاث التاريخية، والمؤرخ المجهز بالوسائل العينية والنظريات الجديدة يتوصل إلى الفتوحات التاريخية الجديدة."<sup>14</sup>

<sup>11</sup> - يدعو عبد الكريم سروش إلى النظر لتاريخ المعرفة البشرية من منظار كونه تاريخ المسائل الفكرية، وهذه المسائل الفكرية تظهر في أجواء التاريخ البشري بسبب التكامل الطبيعي لأذهان الناس وأفكارهم، وأما نتائج هذه المسائل فلا أحد بإمكانه تخمين أو تقدير هذه النتائج وأين ستنتهي وإلى أين تصل. انظر عبد الكريم سروش: "العقل والحرية"، ترجمة أحمد القبانجي، منشورات الجمل بيروت، الطبعة الأولى 2009، ص 72

<sup>12</sup> - عبد الكريم سروش: شريعتي وتجديد الفكر الديني، مجلة الوعي المعاصر، العدد الثامن بيروت ربيع 2002، ص 115

<sup>13</sup> - عبد الكريم سروش: "القبض والبسط في الشريعة"، ترجمة الدكتورة دلال عباس، منشورات دار الجديد، بيروت، الطبعة الأولى 2002، ص 31

<sup>14</sup> - سرمد الطائي: "نظرية القبض والبسط النظري للشريعة"، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد 18 سنة 2002، ص 64

يصل سروس إلى خلاصة مفادها أن الفقهاء ما لم يجتهدوا في دائرة المباني والأصول، ويطرحوا معرفة جديدة في إطار علوم الأئسنة والوجود<sup>15</sup>، فإنهم لن يتمكنوا من الاستجابة لتحديات الواقع وحاجات المجتمع البشري المعاصر، لأن الفقه الكامل لا يوجد على سطح الأرض، بل هو عند الله، رغم أن الفقه علم بشري ليكون بذلك على غرار باقي العلوم البشرية، بما فيها الدينية، متحرًا في صراط التكامل<sup>16</sup>.

وعليه، عمل سروس على إحداث تغيير في منهج بحث المعرفة الدينية من داخل أصول الدين؛ أي من خلال علم الكلام<sup>17</sup> وعدته في هذا الاقتحام الفلسفة والإبستمولوجيا والعلوم الطبيعية التي يقول عنها دون تردد: ليس هناك خيار آخر أمام المعرفة الدينية غير أن تتزود من مبادئ الإبستمولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم اللغة، لأن هناك تلاؤمًا لدى الإنسان المعاصر بين معرفته بالإنسان ومعرفته بالطبيعة والألسنية والأنثروبولوجيا. وهذا التلاؤم يجب أن يشمل فهم الإنسان للدين.

إن الأطروحات الفكرية السروسية تتميز بالجرأة والجدة المعرفية والجدية، ويرى أحمد القبانجي أحد المتخصصين في ترجمة أعمال سروس، أن القول بأن المعرفة الدينية معرفة متغيرة ونسبية وتحتمل الخطأ والتناقض، وهي بشرية وتاريخية، وأن الوحي والرسالة تابعان لشخصية النبي الكريم، بخلاف الرأي السائد لدى أكثرية علماء الإسلام الذين يرون أن معارفهم الدينية هي معلومات صادقة وتامة، بقدر ما هي صحيحة وضرورية من حيث علاقتها بالأصل والنص، مما يجعل كل فريق يدعي أن فهمه للإسلام هو الفهم الأصولي الصحيح، وأن خطه هو الخط المستقيم، مستبعدًا سواه من حظيرة الإسلام أو من دائرة الإيمان.

إننا إزاء تعامل نقدي عقلاني مع الوحي والمعارف الدينية، يتيح الخروج على عقلية الفرقة الناجية التي تحول المجتمعات والطوائف والفرق إلى معسكرات عقائدية. طرح يززع النرجسية العقائدية ويفضح ادعاءات الذين يدعون القبض على معنى النص أو حقيقته، مما يكسر وحدانية الفهم، ويفتح الإسلام والديانات الأخرى على تعددية المعنى والدلالة.

<sup>15</sup>- هذه العلوم التي استطاعت حشر الدين في حدود ضيقة وزاوية حرجة، وأن تفرض بكل احترام نوعاً من التواضع على الدين وعلى المتدينين، وأثبتت أن تعاليم الدين تختص بدائرة معينة، ولا يمكن أن تدعي تغطية الدوائر المعرفية والإحاطة بجميع أبواب المعرفة البشرية. عبد الكريم سروس: "العقل والحرية"، م س، ص 76

<sup>16</sup>- عبد الكريم سروس: "العقل والحرية"، م س، ص 20

<sup>17</sup>- تقوم أركان نظرية المعرفة الدينية لدى عبد الكريم سروس على جملة عناصر نجملها فيما يلي:

(1) الدين والمعرفة الدينية أمران متغايران. (2) الدين ثابت والمعرفة الدينية معرفة بشرية والمعارف البشرية متغيرة. (3) الفقه علم دنيوي ومن عرضيات الدين. (4) الشريعة صامنة وقدرة خطابها وأجوبتها هي بقدر أسئلتنا واستنطاقها لها. (5) الوحي والرسالة تابعان لشخصية النبي والمحيط والثقافة التي كان يعيشها. (6) خاتمية النبوة لا تستوجب ختم حضور النبي في ميدان التدين وانقطاع الوحي، بل تؤكد ضرورة هذا الحضور لتأمين التجارب الدينية المفيدة. (7) شخصية النبي بشرية سواء في التشريع أو في التجربة الدينية. (8) المعرفة الدينية متحركة ومتكاملة كسائر المعارف البشرية. (9) تنقيح فهم الدين يحتاج إلى الإطلاع ما أمكن على المعارف خارج الدين.

## 2- التعددية الدينية: معالم نظرية جديدة في الإسلام

وصل سروش في مسار هذا التفكير الإبستمولوجي إلى مأزق منهجي خطير ومهم، يفرض تجاوزه تفكيراً استراتيجياً يتجاوز حدود الاجتهاد الفقهي والتأويل الإيديولوجي للنصوص إلى التأسيس للاهوت إسلامي عالمي جديد، يتجاوز العرضيات كالثقافة، واللغة، والقومية... إلخ، التي صبغت الإسلام طوال قرون، فيكون لاهوتاً يبيقي على الجوهر في الإسلام ولا يلغي العرضي بما يمثله من معطيات تاريخية، ولكن يفسره بمناهج علوم الإنسان والمجتمع ويتجاوزه إلى ما هو عالمي وإنساني.

في هذا السياق، تأتي محاولات قوامها التأسيس لنظرية التعددية الدينية من منطلق كون فهمنا للمتون والنصوص الدينية متنوعاً ومتعدداً، هذا التعدد والتنوع لا يقبل الاختزال إلى فهم واحد. ويضيف سروش أن هذا الفهم ليس متنوعاً ومتعدداً فحسب، بل سيالاً أيضاً، والسر في ذلك أن النص صامت ونحن نسعى باستمرار لفهم النصوص الدينية وتفسيرها من خلال الاستعانة بمسبقاتنا الفكرية وتوقعاتنا من النص، والأسئلة التي تدور في أذهاننا في مرحلة سابقة<sup>18</sup>.

يعمد سروش في مستهل كتابه "الصراطات المستقيمة" إلى توضيح معالم أطروحته حول التعددية الدينية، وذلك بالتأكيد على أنها نظرية معرفية في باب حقانية الأديان والمتدينين، وتكشف الستار عن حقيقة أن الكثرة في عالم الأديان حادثة طبيعية تعكس في طياتها حقانية كثير من الأديان، وأن كثيراً من المتدينين محقون في اعتناقهم لدينهم. وتقف هذه النظرية في مقابل الانحصارية الدينية التي ترى أن الحقانية والهداية والسعادة تكمن في اتباع دين بذاته، وأن المخالفين والمنكرين له يتسمون بالعناد عن الحق، وأن كثرة الأديان توصل باب السعادة أمام البشر وتحجب أنوار الهداية عنهم<sup>19</sup>.

ويلخص سروش التباينات القائمة بين التوجهين في قوله: "يمكن بسهولة تشخيص محل النزاع الذي يدور حول مقولتين مهمتين في دائرة فهم الحقيقة، الأولى: هل هناك دين حق؟ والثانية: ما هو نصيبنا من هذا الحق؟ يقول التعدديون: ليس لدينا حق واحد بل هناك كثير من أشكال الحق. أما الحصريون، فيقولون إن الحق واحد وغيره مهما كان باطل"<sup>20</sup>.

18- عبد الكريم سروش: "الصراطات المستقيمة؛ قراءة جديدة لنظرية التعددية الدينية"، ترجمة أحمد القبانجي، منشورات الجمل بيروت، الطبعة الأولى 2009، ص 16

19- عبد الكريم سروش: الصراطات المستقيمة، م س، ص 5 و 6

20- عبد الكريم سروش: الصراطات المستقيمة، م س، ص 7

ويقيم نظريته في التعددية هذه على عشرة مباني محورية، نلخصها تباعاً على النحو التالي<sup>21</sup>:

- الأول: الواقع يتضمن التعدد في باطنه، وبما أن الكلام يحكي عن الواقع ويكشف الستار عنه، فسيكون متعددًا تبعًا لذلك<sup>22</sup>.
- الثاني: التنوع لا يقبل الوحدة في ذاته، فكما لا يوجد دين غير مفسر كذلك لا وجود لتجربة دينية غير مفسرة<sup>23</sup>.
- الثالث: ظهور المطلق في المقيد واللامتعين في التعيين إلى جانب التعدد في مقام فهم المتون الدينية وفي مقام تفسير التجارب الدينية.
- الرابع: تراكم الحقائق هو السبب في التعدد والتفرقة، فالتنوع لا يعني حالة طارئة على الدين، بل يمثل حالة أصيلة وغير قابلة للاجتنا ب.
- الخامس: الكثرة الظاهرية مقابل الكثرة الواقعية.
- السادس: اسم "الهادي" لله تعالى الذي يدفع بالإنسان إلى توسيع دائرة الهداية، ويعتقد بأن للآخرين نصيبًا من النجاة والسعادة والحقانية، وهذه هي روح التعددية.
- السابع: عدم الخلو ص في أمور العالم فلا شيء يعكس حالة الخلو ص في نفسه<sup>24</sup>.
- الثامن: تعارف الحقائق؛ أي أن الفكرة الحقة ينبغي فهمها بالتزامن مع الأفكار الحقة الأخرى.
- التاسع: الحرية الذاتية قائمة على التعددية الواقعية، فالفردانية القائمة على نفي الكليات دليل على التعددية.

<sup>21</sup> - عبد الكريم سرروش: الصراطات المستقيمة، م س، ص 12 وما بعدها.

<sup>22</sup> - هذا المبنى هو الذي يضمن للنص طراوته ويحفظ خلوده، فرأسمال الأديان يتمثل في هذه العبارات النافذة إلى القلب والعميقة في المعنى والأبدية على مستوى الزمان، إذ إنها تمنح كل شخص يقرأها مضمونًا جديدًا.

<sup>23</sup> - إذن، فالطريق الآخر لوجود ظاهرة التعدد والتنوع في الفكر الديني، هو وجود تفاسير متعددة ومتنوعة للتجربة الواحدة. سواء قلنا إن التجربة الدينية أمر واحد له تفاسير مختلفة، أو قلنا إن التجارب الدينية متنوعة ومتعددة في الأصل، نحن، على أية حال، نواجه التنوع الذي لا يقبل الاختزال أبدًا إلى أمر واحد، فيجب الاعتراف بهذا التنوع وعدم التغافل عنه.

<sup>24</sup> - يفرض هذا بالضرورة استيعاب مسألة مهمة جدًا هي أن الدين عندما يدخل التاريخ البشري، فإنه يرتدي حلة تاريخية وبشرية ويتعرض لتصرفات أذهان البشر وسلوكياتهم، وبالتالي سوف تغطي الحجب الحقائق فينقص أو يزداد فيه.

- العاشر: التعددية السببية القائمة على التمييز بين تدين العلة وتدين الدليل.

تستند أطروحة التعددية هذه إلى جانب المباني العشرة السالفة الذكر على دعامتين أساسيتين: إحداهما التنوع في الأفهام بالنسبة إلى لمتون الدينية، والأخرى التنوع في تفسيرنا للتجارب الدينية. ويدعم سروش طرحه التعددي هذا بالقول، إن أول واضع لبذور التعددية في العالم هو الله، وذلك حين أرسل أنبياء متعددين فتجلى لكل واحد منهم وبعثه إلى مجتمع معين.<sup>25</sup>

يرى الكثير من رجال الدين في رؤى هذا المجدد تهديداً حقيقياً لنوامس الحقيقة التي يقبضون عليها، كيف لا وهو الذي يقرب بنظريته هذه مسلمات ركن إليها الجميع، واستلذها العوام والخواص على السواء. فمفهوم الكفر أو الإيمان في ضوء هذه النظرية يختلف عن المعنى السائد، فسروش لا يرى أن القبول بالتعددية الدينية يستلزم التنازل عن إيمان المرء بدينه، كما أنه لا يتفق مع إطلاق حكم الكفر على الآخرين جزافاً؛ فالكفر كما يقول سروش موقف يتخذه المرء من الله، وهناك كثيرون من خارج الإسلام لم يعرفوا عن الإسلام أو لم يفكروا أصلاً في العقائد أو لم يقتنعوا بالإسلام، فهؤلاء ليسوا كفاراً بالمعنى الواقعي.

لقد عمل رجال الدين على التصدي لمثل هذه المقولات من موقع الخصومة<sup>26</sup> والعقدة لسببين: أحدهما أن التدين المعرفي يعيش دائماً بهذه الصورة، حيث يمتد التنوع إلى طبيعة هذا النوع من التدين.<sup>27</sup> والآخر هو معارضة رجال الدين لمقولة التعددية، إما ناشئة من جهلهم بمضمون هذه المقولة، أو بسبب الدوافع النفعية التي تتناغم مع إيمان العوام، وأنه لا ينبغي تعريض إيمان العوام للاهتزاز والشك. ولكن هذه المسألة عند أهلها كالشمس في وضح النهار لا تقبل الشك والتردد.<sup>28</sup>

إن بحث القراءات المتعددة عن الدين يتولد وينمو تدريجياً في مجتمعاتنا الدينية، خاصة في المضمون الذي يمثل ضداً لما تشهده هذه المجتمعات من احتقان يعود في جزء كبير منه إلى إنكفاء التمييز والتصنيف والتعصب من هذا الطرف أو ذاك. ولهذه القراءات مخالفون وموافقون كثير، والأكيد أن محاولات سروش في سبيل بناء نظرية متكاملة حول مبحث التعددية الدينية ما تزال بحاجة إلى التقويم والترشيد في أكثر من جانب للقدرة على

<sup>25</sup>- عبد الكريم سروش: "بسط التجربة النبوية"، ترجمة أحمد القبانجي، منشورات الجمل بيروت، الطبعة الأولى 2009، ص 30

<sup>26</sup>- من الأسماء التي كالتهم السفطة والتغريب لعبد الكريم سروش نذكر: الشيخ مكارم الشيرازي والشيخ جعفر السبحاني والشيخ جواد آملّي والشيخ صادق لاريجاني وعلي رضا قائمي نيا... وآخرون.

<sup>27</sup>- نشير إلى أن سروش طي حديثه عن أنماط التدين يقسمه إلى ثلاثة أنماط هي: التدين المعيشي والتدين التجريبي والتدين المعرفي، انظر عبد الكريم سروش: "العقل والحرية"، م س، ص 138

<sup>28</sup>- عبد الكريم سروش: "العقل والحرية"، م س، ص 162

الإجابة على الأسئلة التي تطوّقها<sup>29</sup>، لكنها تبقى بمثابة خارطة للطريق تمهد للباحثين المسار بغية مزيد من الاستيعاب والتجاوز.

## خاتمة:

إن الحاجة أكثر من ملحة إلى إثارة وإحياء النقاش حول أطروحة التعددية الدينية، وتعميق البحث فيها والتفكير فيها، والسعي لنشر أفكارها بين بني الديانة الواحدة أملاً في وضع حد للصراع الطائفي والافتتال المذهبي في أكثر من قطر في العالم، وفي العالم العربي الإسلامي خاصة، وبين أصحاب الديانات المختلفة، رداً على أنصار "الصراع الحضاري" ودعاة الغلو والتطرف داخل كل ديانة، ولتجاوز أسطورة الحوار بين الأديان التي استمرت لعقود من الزمن دون أن تحقق أية نتائج تذكر، هذا مع التنبيه إلى انحصاريتها الضيقة بين ديانتين فقط؛ الإسلام والمسيحية.

هذه الحاجة التي يلخصها جون هيك في مقولته: "إن لم تتصالح الأديان فلا أمل بالتصالح بين بني البشر، ولا يمكن إيجاد صلح بين الأديان إلا بالتصديق بهذا المعنى والمفهوم، وهو أن الأديان المختلفة عبارة عن انعكاسات وتجليات لحقيقة الألوهية الواحدة".

وقد قام العارف الكبير محي الدين بن عربي بنظم الدعوى ذاتها درراً من الشعر منذ القرن السابع بقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان وبيت لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآن

<sup>29</sup> - علي رضا قائمي نيا: التدين والصراط المستقيم، ترجمة حيدر حب الله، موقع مجلة نصوص معاصرة، استرجع بتاريخ 03 غشت/ أب 2013

## لائحة المراجع:

### الكتب:

- أنيس مالك طه: التعددية الدينية: رؤية إسلامية، كوالالمبور: مركز البحوث الجامعية العالمية بماليزيا، الطبعة الأولى 2005
- عبد الكريم سروش: الصراطات المستقيمة؛ قراءة جديدة لنظرية التعددية الدينية، ترجمة أحمد القبانجي، منشورات الجمل بيروت، الطبعة الأولى 2009
- عبد الكريم سروش: العقل والحرية، ترجمة أحمد القبانجي، منشورات الجمل بيروت، الطبعة الأولى 2009
- عبد الكريم سروش: القبض والبسط في الشريعة، ترجمة الدكتورة دلال عباس، منشورات دار الجديد بيروت، الطبعة الأولى 2002
- عبد الكريم سروش: بسط التجربة النبوية، ترجمة أحمد القبانجي، منشورات الجمل بيروت، الطبعة الأولى 2009، ص 30
- يوسف زيدان: أصول العنف في اللاهوت العربي، دار الشروق القاهرة، الطبعة السابعة 2013

### الدراسات والمقالات:

- جون هيك: "الأديان المختلفة وتعارضات الحقيقة"، مجلة التفاهم، العدد 31، السنة التاسعة شتاء 2011
- سمر الطائي: "نظرية القبض والبسط النظري للشريعة"، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد 18 سنة 2002
- شلايرماخر: "دفاعا عن التجربة الدينية" مجلة قضايا إسلامية معاصرة، العدد 53-54 السنة السابعة عشرة، شتاء وربيع 2013
- عادل الخزعل: "التعددية الدينية"، يومية الصباح الجديد، عدد 2647 بتاريخ 21 غشت/أب 2013
- عبد الكريم سروش: "شريعتي وتجديد الفكر الديني"، مجلة الوعي المعاصر، العدد الثامن بيروت، ربيع 2002
- علي رضا قائمي نيا: التدين والصراط المستقيم، ترجمة حيدر حب الله، موقع مجلة نصوص معاصرة، استرجع بتاريخ 03 غشت/أب 2013
- نجف علي ميرزائي: "الدين يحتكر الحقيقة؛ موقف إسلامي من التعددية"، يومية النهار اللبنانية، بتاريخ 17 مارس/ آذار 2002
- وجيه كوثراني: "قراءة في القبض والبسط لعبد الكريم سروش"، يومية الوسط البحريني، عدد 2141 بتاريخ 17 يوليو/تموز 2008



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com